عز الدين القسام

1935 - 1871

كتب الكثير عن عز الدين القسام كأحد رموز الثورة الفلسطينية الأوائل. وحولته كثرة الكتابة عنه، ومباراة الكتاب المؤرخين للثورة في تمجيده إلى الأسطورة. ومن المؤكد أن تاريخ القسام وسيرة حياته ونضاله تعطيه صفات تميز بها عن آخرين ممن صاروا بعد استشهاده قادة للشعب الفلسطيني في نضاله من أجل حريته. وبرز تميز القسام في صلابة موقفه وفي امتناعه عن المساومة في حقوق الشعب الفلسطيني. ورغم أنه لم يكن فلسطينياً إلا أن الشعب الفلسطيني كرسه بعد استشهاده واحداً من أبناء فلسطين وقائداً من قادة ثورتها البكر في منتصف ثلاثينات القرن الماضي. ذلك أنه كان الأبرز بين من حملوا لواء القضية، والأكثر وضوحاً في مواقفه والأكثر تشدداً إزاء الحركة الصهيونية وإزاء المستعمرين البريطانيين.

والمعروف أن القسام هو سوري الولادة والعائلة والنشأة. وأنه ذهب إلى فلسطين ثائراً، حاملاً معه تجربة كفاحه ضد الإستعمار الفرنسي، بعد أن قمعت المرحلة الأولى من الثورة السورية التي كان من أبطالها بين عامي 1919 و1920 كل من ابراهيم هنانو وصالح العلي وأحمد مريود وعبد الرحمن الشهبندر وعمر البيطار. تسلل القسام من سوريا إلى فلسطين ليتابع كفاحه ضد المستعمرين اقتناعاً منه بأن أي أرض عربية هي أرضه، وأن مقاومة المستعمرين في أي أرض عربية إنما تخدم العرب جميعاً في كل أفكارهم.

ولد القسام في عام 1883 في مدينة جبله السورية التابعة لمحافظة اللاذقية. تلقى علومه الإبتدائية في المدينة ذاتها. أرسله والده وهو في الرابعة عشرة من عمره إلى مصر للدراسة في الأزهر. وحصل في الأزهر على إجازة في العلوم الإسلامية. وتشير سيرته إلى أنه تابع أخبار ثورة عرابي وما آلت إليه وتأثر بها وبزعيمها أحمد عرابي. حين عاد إلى جبله بعد انتهاء دراسته في الأزهر حمل معه مشاعر ثورية لم تلبث أن تجلت في البداية في مواقف ضد الإقطاعيين في المدينة الذين كانوا يستأثرون بثلاثة أرباع أراضيها. وكان الفلاحون أجراء عند

الإقطاعيين يتحكمون بهم ويذلونهم. فبدأ حملة تثقيف للفلاحين ونشر الوعي بينهم وحضهم على النضال دفاعاً عن حقوقهم. وكان يزور الفلاحين في منازلهم ويقنع الأهل بوجوب تعليم أبنائهم. ورغم أن الإقطاعيين ضاقوا ذرعاً به وبنشاطه إلا أنه لم يأبه لهم مستخدماً موقعه كشيخ أزهري للدفاع عن نفسه ضد أي عمل انتقامي منهم. ولم يلبث أن افتتح في عام 1912 مدرسة لتعليم الأطفال في الصباح وتعليم الكبار في المساء، إضافة إلى الدروس والمحاضرات التي كان يلقيها في مسجد المدينة. ولم يحصر نشاطه في بث الوعي في مدينة جبله. بل هو ذهب إلى بانياس واللاذقية مدرساً ومحاضراً يبث الوعي في الناس حيث كانت تتوفر له الإمكانات والمناسبات. وسرعان ما أصبح اسمه معروفاً في مختلف مدن الساحل السوري. وإذ أصبح إماماً للمسجد المنصوري في جبله فإن خطبه التي كان يلقيها في صلوات الجمعة كانت تتضمن إلى جانب الإرشادات الدينية توعية للمؤمنين بقضاياهم وهمومهم ومشاكلهم.

ويذكر المؤرخون لسيرة القسام أنه استنفر مجموعة من أصدقائه لنجدة الثورة الليبية بقيادة زعيمها عمر المختار في عام 1911 في مواجهة القوات الإيطالية التي حاصرت مدينة طرابلس. فبدأ حملة تحريض في خطبه على المستعمرين الإيطاليين ودعوة السوريين إلى الجهاد انتصاراً لأشقائهم الليبيين. وقاد تظاهرات صاخبة تندد بالمستعمرين الإيطاليين. وعمل على تجنيد المئات من الشبان وإعدادهم عسكرياً للجهاد. وعمل معهم على جمع الأموال وتطويع المجاهدين لمساندة أشقائهم الليبيين. وعندما استكملت الإستعدادات انتقل مع المتطوعين بحراً إلى ليبيا عبر الإسكندرية في مصر. لكنه لم يتمكن من دخول ليبيا مع المجموعة المقاتلة. فذهب وحيداً إلى هناك لفترة قصيرة عاد بعدها إلى نشاطه السياسي في جبله. ظل القسام على هذا المنوال في العمل التعبوي ضد المستعمرين على امتداد الفترة التي وقعت فيها الحرب العالمية الأولى. وعندما احتل الفرنسيون الساحل السوري في نهاية الحرب في عام 1918 وجد القسام نفسه في حركة مقاومة ضد المستعمرين الجدد. ويقال إنه بادر

إلى بيع منزله لشراء أسلحة للمجاهدين. وصعد مع المجاهدين إلى المنطقة الجبلية في محافظة اللاذقية وتمركز في قلعة صهيون. وبدأ من هناك عملياته الفدائية ضد الفرنسيين. والتقى في عام 1919 و1920 في المقاومة ضد الفرنسيين مع ثلاثة أبطال كانوا قد بدأوا الكفاح ضد الفرنسيين هم ابراهيم هنانو وصالح العلي وعمر البيطار. وكان الثلاثة ومعهم القسام من أنصار استقلال سوريا مع الأمير فيصل ابن الحسين الذي أعلن نفسه ملكاً على سوريا الطبيعية بدعم من عدد كبير من زعماء بلاد الشام من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين. وشكلوا حركة مقاومة انتهت في خسارة الحرب في معركة ميسلون التي قادها يوسف العظمه واستشهد فيها في عام 1920. وغادر فيصل دمشق إلى إنكلترا ليعلن في عام 1921 ملكاً على العراق بقرار بريطاني وباتفاق مع زعماء عشائر العراق الذين قادوا ثورة العشرين ضد الإنجليز. وبانتهاء الثورة السورية في مرحلتها الأولى تلك غادر القسام مع بعض أخوانه، بعد أن بلغه حكم الإعدام الذي صدر بحقه، إلى فلسطين لمتابعة كفاحه من أجل الحرية. انتقل أولاً إلى مدينة بيروت ومنها إلى مدينة صيدا. ومن مدينة صيدا انتقل بحراً إلى مدينة عكا. ثم انتقل من عكا إلى حيفا. واستقر به المقام في قرية الياجور القريبة من حيفا ومعه بعض رفاقه من المجاهدين الذين جاءوا معه من سوريا. التحق على الفور بالمدرسة الإسلامية في حيفا. ثم انتسب إلى جمعية الشبان المسلمين وانتخب رئيساً لها في عام 1926. في عام 1929 أشيع أن اليهود يعدون لإحراق مسجد الإستقلال في حيفا الذي كان قد أصبح هو إمامه. فاقترح بعض الوجهاء الإستعانة بالسلطات البريطانية للمساعدة في حماية المسجد فرفض القسام الإقتراح قائلاً لهم "دمنا هو الذي يحمي المسلمين ويحمي مساجد المسلمين لا دماء المحتلين لأرضنا". كانت بداية نشاطاته دينية بعد أن كان قد أصبح إماماً لمسجد الإستقلال في حيفا. ومن موقعه الديني إماماً لذلك المسجد بدأ نشاطه السياسي في اتجاهين انطلاقاً من موقف أساسي كان مقتنعاً به مفاده أن لا تناقض بين الدين والسياسة. الإتجاه الأول هو مقاومته

الإحتلال البريطاني لفلسطين. والإتجاه الثاني هو مقاومة الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وقد عرضته نشاطاته ومواقفه إلى السجن أكثر من مرة. واستمر يعد العدة لأشكال جديدة من الكفاح ضد الإحتلال البريطاني وضد الهجرة اليهودية. فألف خلايا سرية مدربة على السلاح قامت بالعديد من العمليات في الإتجاهين المشار إليهما. وظل على ذلك المنوال في نشاطه منذ وصوله إلى فلسطين. وتعددت أنواع المعارك التي خاضها. وتعددت المواقف التي اتخذها في السياسة متمايزاً فيها عمن كانوا في مواقع قيادية معروفة فلسطينياً وعربياً وعالمياً، وفي مقدمتهم مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني. وكانت آخر معاركه في عام 1935 التي انتهت باستشهاده.

لكن لتاريخ استشهاد القسام تاريخ سابق عليه يتصل بأحداث مهمة وبمواقف مهمة للقسام تعبر عن نهجه في الكفاح الثوري. وهذه التواريخ التي تمتد من عام 1929 حتى عام 1935 تشير إلى الظروف التي كان يتراكم فيها الحراك الشعبي ضد الإنتداب البريطاني وضد الحركة الصهيونية في تحالفهما ضد الشعب الفلسطيني. ومعروف أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين كانت قد بدأت تتسع قبل الحرب العالمية الثانية بتأثير من وعد بلفور. واتخذت في ثلاثينات القرن في ظل الإنتداب البريطاني أشكالاً جديدة ترافق فيها شراء الأراضي أو الإستيلاء عليها بأعمال عدوانية ضد العرب بما في ذلك باستخدام السلاح. وأدت عمليات الإستيلاء على الأراضي إلى نزوح عدد كبير من الفلاحين العرب من الأرياف إلى المدن. وكانت حادثة "البراق" تعبيراً عن وصول الصراع إلى نقطة التفجر. فقد حاولت بعض العصابات الصهيونية الإستيلاء على الأرض اللاحقة لحائط المبكى بهدف الوصول إلى المسجد الأقصى والإستيلاء عليه لاحقاً. كان ذلك في شهر آب من عام 1929. فحصلت مظاهرات صهيونية قابلتها مظاهرات عربية مضادة سرعان ما انتشرت في مختلف المدن الفلسطينية وسقط فيها قتلى. وكانت البداية في تأسيس جمعية حراس حائط المبكى قابلها الفلسطينيون بقرار من الحاج أمين

الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى بتأسيس جمعية حراس المسجد الأقصى. والبراق كما هو معروف هو الإسم الذي أعطي للحائط الغربي للحرم الشريف ببيت المقدس. ويسميه المسلمون البراق نسبة إلى البراق الذي امتطاه النبي محمد ليلة الإسراء. ويعرف البراق عند اليهود بحائط المبكى.

كانت حادثة البراق والأحداث المتصلة بها بداية حركة من نوع جديد في الصراع على فلسطين بين عرب فلسطين والحركة الصهيونية. وتكررت الأحداث بوتائركانت تتصاعد حدتها على امتداد الفترة التي أعقبت حادثة البراق. لم يكن للقسام دور أساسي ظاهر في تلك الأحداث. لكنه كان منهمكاً في الإعداد لثورة تتوفر فيها الشروط للإنتصار. ولم يكن متسرعاً في بدء الثورة. كان يعمل ليل نهار على تجنيد المجاهدين في تنظيم سري. وكان يزور القرى والمدن ليلتقي بالعمال والفلاحين المشردين يحثهم على النضال ضد العدوين اللذين كان قد اقتنع القسام بتحالفهما ضد الشعب الفلسطيني وهما الحركة الصهيونية والإنتداب البريطاني. كان همه أن يدخل الوعي لدى من يلتقي بهم بهذه الحقيقة لكي يعرفوا من أين يبدأون نضالهم وإلى أين يجب أن ينتهوا. وكان القسم الأكبر ممن انضموا إلى حركة القسام من العمال والفلاحين ومن ذوي المهن المتواضعة. كان بينهم كما تقول بيان نويهض في كتابها المكرس للقسام الحجار والحذاء والفحام والسمكري وبياع الكاز والجمال والحارس والفران. وكان بينهم من لم يمتهن عملاً. لكن القسام كان شديد الحرص على سرية عمله حتى لا يكتشف أمره قبل أن يكون قد أعد العدة لبدء الثورة. وقسم حركته السرية إلى خمسة فروع. يقول زياد الصغير في كتابه ثورة فلسطين أثرها في لبنان : "استطاع الشيخ عز الدين القسام وصحبه حتى عام 1935 تنظيم عملهم الثوري حينما كان قد أدرك أن محاربة الصهيونية والإستعمار البريطاني لا تكون بالإنتفاضة العفوية، بل بعمل سري منظم طويل الأمد ولذا بدأ منذ عام 1930 ينظم الفلاحين المشردين والعمال في حيفا ضمن حلقات سرية. ولا يقبل في الحركة إلا كل مؤمن لقتال

الإنجليز واليهود معاً لأنهم يحتلون البلاد. وقد قسم حركته إلى خمسة فروع: 1- فرع الدون مكون من العلماء. وواجباتهم الإتصال بالجماهير لحضهم على الثورة، 2- فرع التموين لشراء السلاح، 3- فرع التدريب العسكري يشرف عليه أحد الضباط العرب، 4- فرع التجسس على الصهاينة والإنجليز لرصد تحركاتهم ومعرفة خططهم، 5- فرع العلاقات الخارجية للإتصالات السياسية".

ثم أن القسام، اقتناعاً منه بضرورة الإعداد من دون تسريع للثورة، قد برمج ثورته في أربع مراحل. نقتطف من مقال لغسان كنفاني في مجلة شؤون فلسطينية بعنوان "ثورة 36-1939 خلفيات وتفاصيل وتحليل": "... ويقول أحد القساميين المعروفين إن القسام برمج ثورته في أربع مراحل: الإعداد النفسي ونشر روح الثورة، إنشاء حلقات سرية، تشكيل لجان لجمع التبرعات ولجان لشراء السلاح، ولجان تدريب ولجان أمن وتجسس ولجان دعاية وإعلام، ولجان إتصالات سياسية. ثم الثورة المسلحة. إن معظم العارفين بالقسام يقولون إن خروجه إلى تلال يعبد مع 25 من رجاله ليل 12-11-1935 لم تكن غايته إعلان الثورة المسلحة، ولكن نشر الدعوة للثورة. إلا أ اشتباكاً عرضياً أدى إلى افتضاح أمر وجوده هناك. وبالرغم من استبساله مع رجاله فقد قضت قوة بريطانية على مجموعته بسهولة. ويبدو أن الشيخ القسام حين شعر بأنه لم يعد بوسعه توسيع الثورة مع رفاقه رفع شعاره المشهور: موتوا شهداء. ومن حق القسام أن نفهم شعاره هذا فهماً غيفارياً، إذا جاز التعبير، لكن على المستوى الوطني العادي. إن سلوك القسام من خلال الشهادات القليلة التي نملكها عنه تدل على أنه كان يدرك أهمية دوره كمفجر لبؤرة ثورية أمامية. وما لبث هذا الشعار أن أثمر على التو. فقد شيعت الجماهير جثمان شهيدها مشياً على الأقدام إلى قرية ياجور مسافة 10 كيلومترات. على أن أهم ما في الأمر كان افتضاح القيادات التقليدية أمام التحدي الذي مثله الشيخ القسام. وقد شعر هؤلاء القادة بهذا التحدي بنفس المقدار الذي شعر فيه الإنتداب البريطاني. ويقول أحد القساميين أنه

قبل أن يصعد القسام إلى الجبال بشهور قليلة أرسل إلى الحاج أمين الحسيني بواسطة الشيخ موسى العزراوي يطلب منه التنسيق لإعلان الثورة في جميع أنحاء البلاد. إلا أن الحسيني رفض بحجة أن الظروف لم تنضج بعد...".

وتقول بيان نويهض الحوت في كتابها الآنف الذكر إن القسام "لم يصدر بياناً أول بإعلان الثورة. لم يخبر أقرب المقربين إليه بقراره الخروج إلى الجبال للإعتصام فيها. كل ما عرف عن قصة القرار والخروج أن القسام وإخوانه خرجوا بعد صلاة العشاء من جامع الإستقلال وتوجهوا إلى الجبال. وكان عددهم ستة عشر رجلاً تقريباً. غير أنهم لم يكملوا جميعهم الطريق إلى يعبد. وكذلك الشيخ فرحان السعدي الذي التقى الجماعة في نورس لم يكمل الطريق إلى يعبد. وذلك لضرورة انتشار القساميين في أكثر من مكان. كتب القسام قبل مغادرته حيفا إلى صديقه رشيد الحاج ابراهيم يقول: إني واثق من نفسي وإن صوتي سيجد صداه في كل مكان عند أول صيحة. ونستودعك الله راجين من المولى أن يوفقنا في أعمالنا في سبيل الوطن... وكانت معركة يعبد المعركة المفاجئة وشرارة الثورة الحقيقية القادمة، ثورة الشعب كله التي انفجرت في ربيع سنة 1936 واستمرت حتى الحرب العالمية الثانية سنة 1939".

أهمية هذه التفاصيل عن دور القسام في الثورة الفلسطينية الأولى ثورة 1936 هي للتأكيد على أمرين متلازمين: الأمر الأول هو للتأكيد بأن عناصر ثورة 1936 كانت تتكون خلال عدة سنوات في أشكال مختلفة. الأمر الثاني هو للتأكيد بأن القسام الذي جاء إلى فلسطين من رحم الثورة السورية قد رافق تلك العناصر المكونة للثورة وكان نموذجاً راقياً في عمله الدؤوب إعداداً للثورة. وإذا كان معظم المؤرخين للثورة قد أشادوا بدور القسام في الإعداد لها فإن بعضهم قد أغفل أدواراً أخرى لثوريين آخرين من الفلسطينيين ومن العرب. ولعل أحد أسباب الإشادة بدور

القسام في الثورة يعود إلى أن الذين صاروا زعماء الشعب الفلسطيني في المرحلة التي أعقبت فشلها لم يكونوا أمناء لتراث الثورة ولتراث أبطالها الحقيقيين. ولأن الحديث يدور حول القسام فلن ندخل في تفاصيل تاريخية لا تمت إليه بصلة. ونختم بالإشارة إلى بعض عناصر ومكونات الفكر الذي كان يشكل العمود الفقري في تبنيه للثورة. تقول بيان نويهض الحوت في كتابها عن القسام: " كان القسام منذ مطلع شبابه في جبله يقرأ للأفغاني. وكان متابعاً دقيقاً للحركة الإصلاحية الدينية الشاملة في عصره. وفي أثناء دراسته في الأزهر تابع عن قرب التجربة السياسية المصرية. ومصر في تلك المرحلة هي مصر المقهورة في أثر فشل ثورة عرابي. وهي مصر المشعل الذي لم يتوقف عن حمله قادة عظام من زعيم وطني إلى آخر. فمن عرابي إلى مصطفى كامل...".

وتضيف في السياق ذاته: "وإن أوجزنا النقاط الرئيسية لمعالم النهضة الإصلاحية الدينية التي عايشها القسام فهي التالية: 1- العودة بالإسلام إلى أصوله وإسقاط البدع والخرافات ونبذ الطائفية، 2- النظرة إلى تاريخ الإسلام نظرة سلفية صالحة تمتد إلى نهاية القرن الهجري الأول وتستلهم سيرة الرسول الكريم والصحابة الأوائل، 3- الثورة على الإستبداد وعلى الإستعمار الأجنبي واجب جهادي، 4- الإسلام والقومية موضوعان لا تناقض بينهما. وما بين الإسلام والعروبة-خاصة_ ترابط لا يمكن انفصامه. ومن خلال سيرة القسام وتتبعنا لمواقفه وآرائه يتضح لنا أنه لم يكن أميناً على هذه المبادئ فحسب، بل كان أيضاً داعية إليها في أحاديثه وفي سلوكه اليومي وفي إرشاده الدائم لتلاميذه ومريديه".

وتضيف: "آمن القسام بالمساواة بين العباد مساواة حقة. آمن بالمساواة بين المسلم والمسيحي، بين الجاهل والعالم، بين السيد والفلاح، بين المترف والعامل، بين كبير القوم وخادمهم. والقسام في احترامه المطلق للإنسان لم يرفع شعاراً أو يردد أقوالاً كي ترويها عنه

الأجيال. وإنما كان يقرن إيمانه هذا بالتعامل اليومي مع من حوله. وميزة القسام بالصبر العجيب على المنحرفين حتى يهتدوا، وباحترامهم متفهماً نفسياتهم ومادا لهم كل العون بأخوة صادقة كانت ميزة نادرة حقاً. وبإيجاز لم يكن هناك للقسام من نظريات أو أطروحات فكرية- أصلاً_ حتى تناقش. فالقسام لم يقدم للفكر الثوري نظرية جديدة. لم يضف شيئاً إلى علم الثورات. ولم يبتدع أسلوباً جديداً في الكفاح المسلح. وإن قلنا كان القسام داعية شجاعاً إلى مبادئ الجهاد كما نادى به الأولون فالواقع أن القسام لم يكن وحده في هذا العصر بين العرب. ومع ذلك كله فالقسام كان رجلاً كبيراً وعظيماً. إن عظمة القسام تنبع من ممارسته اليومية للمبادئ التي يؤمن بها. وتنبع من نكرانه لذاته. تنبع من رفضه التام لارتباط اسمه بالتنظيم، أو لارتباط التنظيم به. فهو ما أراد أن يؤسس حزباً أو يجمع من حوله جماعة ومريدين. فقد كانت دعوته إلى الجهاد في سبيل الحق دعوة عامة. وهو واحد من المجاهدين".

وفي ضوء قراءاتي لكثير مما كتب عن القسام وعن حركته، ولكثير مما كتب ويكتب عن تاريخ القضية الفلسطينية وعن الثورة الفلسطينية في مراحلها المختلفة، أجد نفسي متفقاً مع ما كتبه غسان كنفاني في كتابه الآنف الذكر إذ يقول: "... ولكن مهما كان الرأي في أفكار القسام فمما لا ريب فيه أن حركته (12-11-1935 – 19-11-1935) كانت نقطة انعطاف لعبت دوراً مهماً في تقرير شكل متقدم من أشكال النضال. إذ أنها وضعت زعامات الحركة الوطنية الفلسطينية التقليدية التي كانت قد انشقت على نفسها وتشتتت وتشرذمت أمام امتحان لا يمكن الفرار منه. ولعل شخصية القسام تشكل في حد ذاتها نقطة التقاء رمزية لمجموعة هائلة من العوامل المتداخلة التي تشكل في مجموعها ما صار يمسى تبسيطاً بالقضية الفلسطينية".